

المؤرخ العربي



مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد التاسع عشر ١٩

١٩٨١

مجلة

المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين امين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد التاسع عشر

١٤٠١هـ = ١٩٨١م

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

محتويات العدد التاسع عشر


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

اللجنة الاستشارية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقـدّمـة

بـين يدي القـارىء الكريم عـدد جديـد من المؤرخ العربي مجلة المؤرخين العرب وهي تحفل بالمواضيع التاريخية العلمية التي دبجتها أنامل المؤرخين الذين يؤمنون بالروح الموضوعية في كتابة التاريخ.

إن مجلة المؤرخ العربي أصبحت من أشهر المجلات التاريخية في العالم وهي تدخل مكتبات الجامعات والمؤسسات الثقافية في قارات العالم جميعا، كما وأصبحت هذه المجلة من المصادر الرئيسية لتاريخنا العربي والإسلامي.

إن التقدم والتوسع والازدهار لمجلة المؤرخ العربي نابع من رغبة المؤرخين العرب في جعل مجلتهم هذه مجلة مـوضوعيـة مقبولـة في كل الأوساط الأكاديمية، كما وصار كل المؤرخين في العالم يطمئن إلى هذه المجلة ويسعى للحصول عليها لما تحتويه من المواضيع التاريخية العلمية المهمة.

إننا نسعى إلى تقدم أوسع ونجاح أوفر وإننا نثق بمؤرخينا في الوطن العربي والعالم والـذين سيعملون عـلى تزويـد مجلتهم بجهودهم العلميـة ونشاطاتهم في الحقل التاريخي.

والله ولي التوفيق.

الدكتور حسين أمين

الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

«نُظُم دمشق الادارية في عهد آل صغتكين»
(٤٩٧-٥٥٠هـ / ١١٠٣-١١٥٤م)

بقلم
الدكتور / دريد عبد القادر نوري
كلية الآداب - جامعة الموصل
(العراق)

. . . قامت هذه الاتابكية في مدينة دمشق بعد الغزوة الصليبية الأولى على بلاد الشام، ومؤسسها ظهير الدين أبو منصور بن عبد الله التركي الأصل المعروف بطغتكين، الذي كان مملوكاً لدى السلاجقة، ثم انفصل عنهم وأسس أتابكيته الجديدة سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م، إثر ظروف إيجابية كانت في صالحه. وقد تمكن طغتكين من السيطرة على مدينة دمشق وما حولها، ثم تمكن من مقاومة الصليبيين بحزم وأفشل مخططاتهم التي ترمي لاحتلال مدينة دمشق لأهميتها الستراتيجية والاقتصادية.

وبعد وفاة طغتكين سنة ٥٢٢هـ/١١٢٩م، سار خلفاؤه من بعده على سياسته نفسها بصورة عامة، وقد استمرت هذه الامارة تحكم دمشق مدة تقارب ثلاثاً وخمسين سنة حتى تمكن نور الدين محمود إبن زنكي من إسقاطها، وضم دمشق لسلطانه، إثر التفكك الذي حدث بداخلها، والمحاولات الصليبية الكثيرة والمستمرة التي كانت ترمي لاحتلالها[١].

---

(١) أنظر في خصوص قيام هذه الأتابكية بحثنا الموسوم «أتابكية دمشق وموقفها من الغزو الصليبي لبلاد الشام ٤٩٧-٥٤٩هـ /١١٠٣-١١٥٤م» المنشور في **مجلة آداب الرافدين**، الصادرة عن جامعة الموصل، كلية الآداب، العدد الحادي عشر لسنة ١٩٧٩.

وعلى الرغم من الحروب الكثيرة والمستمرة التي خاضتها هذه الأتابكية ضد الصليبيين، فقد قامت فيها عدة جوانب حضارية، مُيزت هذه الأتابكية عن غيرها بجملةٍ من المميزات شملت النواحي الادارية في نظام الحكم والوزارة والحجابة ومقدمي العساكر والرياسة والسفارة. كما شملت النواحي الاقتصادية كشؤون العمل الزراعي وإصدار العملات؛ تضاف إليها النواحي الدينية والثقافية كبناء المساجد والمدارس والاهتمام بالشعر والشعراء.

وقبل أن أوضح تلك الجوانب، أشير إلى أن المصادر العربية عامة لم تذكر لنا بشكل واضح وجلي المظاهر الحضارية لهذه الأتابكية، وذلك لاهتمامها بالجوانب السياسية والعسكرية التي رافقت الغزو الصليبي لبلاد الشام، الذي يعتبر حدثاً خطيراً في تاريخ الأمة العربية والاسلامية، ولذلك انصبت إهتمامات المؤرخين القدامى والمحدثين على تلك الجوانب مع إشارات قليلة ونادرة موزعة بين ثنايا السطور، وربما كتبت بطريق غير مباشر في أثناء الحديث عن القائد العسكري وسياسته الداخلية والخارجية في صدِّ الهجوم الصليبي عن مدينة دمشق. ولذلك يجيء هذا البحث كمحاولة متواضعة لالقاء الضوء على مجمل النظم الادارية لمدينة دمشق في أثناء حكم آل طغتكين لها، إذ أن هذه التنظيمات كانت، إلى حدٍ ما، القاعدة التي استند إليها آل طغتكين في حكم البلاد وفي القضاء على الفوضى الداخلية والسير بأتابكيتهم نحو التقدم وللسيطرة على ما يجاور دمشق.

ومما يجدر الاشارة إليه أنَّ النظم بصورة عامة في أتابكية دمشق غير منفصلة عن النظم السابقة لها، أو اللاحقة بها لأن التحول السياسي، والانتقال من عهد إلى آخر، وقيام أتابكية جديدة لا يعني سقوط التنظيمات القديمة، وقيام أخرى جديدة ترافق التحول السياسي الجديد. ولذلك يمكن القول أنَّ النظم الحضارية في أتابكية دمشق لا بد أن تكون متصلة بالنظم الحضارية التي كانت تسود دمشق خاصة والمدن الأخرى عامة قبل مجيء هذه الأتابكية. كما يمكن القول أنَّ هذه النظم الحضارية لأتابكية دمشق لا بد أن تكون قد استمرت بشكل ما في النظم

الحضارية للأتابكيات الأخرى التي نشأت من بعدها وبالخصوص في النظم الزنكية وفي المظاهر الحضارية للأراتقة والأيوبيين.

الادارة في عهد آل طغتكين:

يتبين من النصوص التاريخية أن الحكم في أتابكية دمشق كان وراثياً في أسرة آل طغتكين، وأن الامارة على مدينة دمشق كانت تنتقل من الأب إلى الابن أو إلى الأخ إذا لم يكن بين الأولاد من له المقدرة والكفاية على إدارة الأمور وحكم دمشق. وكان الأمير يوصي ويعينّ من يخلفه من بعده، أحياناً، إلّا أن الوصاية لم تكن معهودة عادة، وكانت النساء، ومن لهم المكانة الكبيرة في البلاد، من رجال العساكر بوجه خاص، يتدخلون في تعيين واختيار الحاكم الجديد على البلاد واختياره.

فالوالي الأول طغتكين، وهو مؤسس هذه الأتابكية، الذي كان حسن السيرة، ظاهر العدالة، شديداً في محاربة الصليبيين[٢]، أخلص أتباعه من بعده في تنفيذ وصيته والتمسك بها، لشدة محبتهم له[٣]، وهي تعيين إبنه تاج الملوك بوري حاكماً من بعده على دمشق وكان ذلك في الثامن من صفر سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م[٤]. وكان بوري هذا يعمل نائباً عن أبيه في حكم البلاد قبل توليه الحكم، وقد ساس الناس سياسة حسنة فأحبه الرعية ووصفوه بالحلم والسماحة وبالتفوق على أبيه في ذلك[٥].

---

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة: د/ت): ٥/١٨٩؛ محمد بن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم (بغداد: ١٩٧٧): ١٢/١٩٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت: ١٩٦٥): ١٠/٦٥٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس (بيروت: د/ت): ١/ ٢٩٦.

(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (حيدر آباد الدكن: ١٩٥١): ٨/١٢٨.

(٥) أنظر: ابن الأثير الكامل: ١٠/٦٨٠؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٨/١٤٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٥/٢٤٩.

غير أن الأجل وافاه إثر اغتياله من قبل الاسماعيلية في الحادي والعشرين من رجب سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م[٦]، وكان قبلها قد عهد بالولاية لابنه شمس الملوك إسماعيل[٧]، الذي أثبت فشلاً ذريعاً في حكمه للبلاد فاغتيل من قبل قادة الجيش بحضور والدته (صفوة الملك زمرد خاتون) في الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م[٨]. التي وافقت على قتله وتدخلت في اختيار أخيه الصغير شهاب الدين محمود من بعده، وبذلك أصبح الحكم الفعلي بيد السيدة صفوة الملك[٩]. إلا أن الأخير - شهاب الدين محمود- قتل أيضاً على يد جماعة من الجند بتخطيط من كبير مقدمي العساكر وهو (معين الدين أنر) الذي سارع بانتخاب أخيه من بعده وهو جمال الدين محمد الملقب بأبي المظفر[١٠]، وقد كان والياً على مدينة حلب قبل اختياره لمنصب الرئاسة. وقد علا شأن أنر في عهده كثيراً وصار - كما يقول ابن الأثير- «هو الجملة والتفصيل»[١١]، وبذلك تدخل قادة الجيش في اختيار الحكام الجدد وفي التدخل في حكم البلاد، كما تدخل النساء من قبل.

إلَّا أن حكم جمال الدين لم يدم سوى سنة واحدة وشهرين حيث وافاه الأجل في الثامن من شعبان سنة ٥٣٤هـ/١١١٨م، فخلفه من بعده

(٦) الكامل: ١٠/٦٧٠؛ النجوم الزاهرة: ٥/٢٤٩؛ ابن الوردي، التاريخ (القاهرة: ١٢٨٥هـ): ٢/٣٧-٣٨.

(٧) الكامل: ١٠/٦٨٠.

(٨) أنظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (بيروت: ١٩٠٨): ص٢٤١-٢٤٢؛ ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب (بيروت: ١٩٥٤): ٢/٢٥٦؛ القرماني، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ (بغداد: ١٢٨٤هـ)، ص٢٨١.

(٩) القرماني، أخبار الدول ص٢٨١.

(١٠) مرآة الزمان: ٨/١٧١-١٧٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (القاهرة: ١٣٥٠هـ): ٤/١٠٣.

(١١) الكامل في التاريخ: ١١/٦٨.

إبنه مجير الدين إبق، وكان صبياً فتولى الحكم نيابة عنه معين الدين أنر، وكان له بمثابة الأتابك، وبذلك انتقل الحكم الفعلي وأصبح بيد قائد الجند. وقد استمر حكم دمشق بيد أنر حتى اضطربت أحوال البلاد، ثم سقطت أخيراً بيد الزنكيين، حيث سلّمت دمشق إلى زنكي في سنة **٥٦٤هـ**، وبذلك انتهى حكم آل طغتكين وبدأ ما سمّي بأتابكية آل زنكي(١٢).

وهكذا فالسلطة الرئيسية في حكم دمشق، في عهد آل طغتكين، كانت بيد الأمير، الذي كان يتمتع بصلاحيات واسعة، كصلاحيات السلاطين السلاجقة، في احتلال القيادة العليا وفي تعيين كبار موظفي الدولة وعزلهم وتأديبهم، وفي تسيير شؤون الأتابكية إدارياً ومالياً وفي الصفحات القادمة ما سيدل على ذلك.

ويلي الأمير (النائب) وهو لقب يطلق «على القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها»(١٣)، في حالة غياب السلطان أو الأمير عن البلد. ففي سنة **٤٩٤هـ/١١٠٠م**، كان طغتكين مثلاً، وهو مؤسس هذه الأتابكية، نائباً عن السلطان السلجوقي دقاق بن تتش في مدينة دمشق وبيده كل الصلاحيات في تمشية أمور البلاد. والدليل على ذلك أنه في نفس السنة أرسل قاضي جبله وهو أبو محمد عبيد اللسا بن منصور إلى أمير دمشق (دقاق) يطلب منه أن يبعث إليه من يتسلم الثغر منه لأنه عاجز عن حمايته والدفاع عنه ضد الصليبيين. ولما كان الدقاق غائباً عن دمشق آنذاك - لأنه كان قد توجه إلى ديار بكر لاخضاعها لسيطرته - لذلك لبّى نداءه

---

(١٢) لمعرفة المزيد عن سقوط أتابكية دمشق بيد الزنكيين أنظر:
ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق: **٢٨٩-٢٩٠، ٣٠٨-٣١٢**؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (بيروت: د/ت): **١/٦٩-٧٠**؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية (بيروت: ١٩٦٨): **٢/٣٨٩-٣٩٢**.

(١٣) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا (القاهرة: د/ت): **٥/٤٥٣**.

النائب طغتكين وأرسل إليه ابنه تاج الملوك بوري حيث تسلم جبله منه وجعلها تابعة لدمشق، ولما عاد دقاق إلى دمشق أقر طغتكين في عمله(١٤).

كذلك كان بوري يقوم بوظيفة النائب في أثناء غياب والده طغتكين عن دمشق وكانت له صلاحيات والده في الحكم. وفي الفترة المتأخرة من حكم هذه الأتابكية كان معين الدين أنر - مقدم العساكر - يقوم بهذه المهمة ويحكم البلاد باسم الأمير الصغير جمال الدين محمد الملقب بأبي المظفر(١٥).

ويلي النائب في الأهمية «الوزير» وكان في عهد طغتكين وزير واحد في دمشق يدير شؤون الامارة إدارياً، غير أنه كان مقيد الصلاحيات خاضعاً لرقابة الأمير، وينتخب لاعتبارات معينة أهمها المهارة والثقافة والالمام بالكتابة ومعرفة اللغة الفارسية أو التركية إلى جانب العربية. فقد استوزر طغتكين في عهده (أبا نجم هبة الله محمد بن بديع الأصفهاني)، غير أنه ظهرت بينه وبين طغتكين جفوة في سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م، فقبض عليه طغتكين وصادر أمواله وأملاكه، ثم أمر بقتله بعد عدة أيام(١٦). ثم استوزر بعده (طاهر بن سعد أبا علي المزدقاني) وكان حسن السيرة قديراً لذلك بقي في منصبه حتى بعد وفاة طغتكين(١٧).

غير أن المزدقاني طمع في البقاء في منصبه وخطط للتنكيل بمنافسيه فارتمى في أحضان الحركة الاسماعيلية وتعاون معها في اغتيال منافسه الأول

(١٤) أنظر: ذيل تاريخ دمشق؛ ص١٣٧؛ الكامل في التاريخ: ١٠/٣١١-٣١٢؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر... المسمى بتاريخ ابن خلدون (القاهرة: ١٢٨٤هـ): ٥/١٨٦.

(١٥) مرآة الزمان: ٨/٢٠٢-٢٠٣.

(١٦) ابن القلانسي، ذيل دمشق، ص١٦٣.

(١٧) نفس المصدر السابق، ص٢٢٠؛ الكامل في التاريخ: ١٠/٦٥٢.

رئيس أحداث دمشق (أبي الذؤاد بن الصوفي)، غير أن أمر المزدقاني كشف وبذلك كانت نهايته مؤلمة حيث دبَّر الأمير بوري أمر مقتله بالتعاون مع الرئيس والحاجب سنة **٥٢٣هـ**[١٨]. ثم استوزر من بعده ابن الصوفي ومنحه سلطات واسعة مع بقاء منصب الرياسة بيده[١٩].

غير أن الأمور لم تستقم لابن الصوفي في الوزارة والرياسة، لذلك عزله الأمير بوري في ربيع الأول من سنة **٥٢٥هـ** وعين في محله في الوزارة (أحمد بن عبد الرزاق المزدقاني) - وهو إبن عم الوزير المزدقاني السابق. ومنحه إضافة إلى منصب الوزارة وظيفة السفارة[٢٠]. والذي تبين أن إبن الصوفي كان غير قدير في عمله وكان كما يقول الكتبي: «ضعيف الكتابة»[٢١]، في حين أن الوزير الجديد -المزدقاني- كان «عارفاً بقوانين الوزارة فصيحاً بالعربية والعجمية»[٢٢]، بالاضافة إلى حسن السيرة وكرم الأخلاق، لذلك نلاحظ استمراره في الوزارة حتى وفاته سنة **٥٢٧هـ** في عهد شمس الملوك إسماعيل، وفي هذه الفترة أعيد إبن الصوفي إلى الرئاسة تكريماً لجهوده السابقة[٢٣].

أما منصب الوزارة فقد منح، بعد المزدقاني، لأبي الكرام، غير أنه سرعان ما عزل في بداية سنة **٥٣٤هـ** وذلك «لأسباب أنكرت عليه وأشياء قيّمة عزيت إليه»[٢٤]، ويبدو أنه تصرف في أكثر مما منح من صلاحيات. وقد استوزر بعده - في عهد الأمير مجير إبق، آخر حكام آل طغتكين -، أبو

(١٨) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان: ٨/١٣١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٥/٢٣٥.

(١٩) الكامل في التاريخ: ١٠/٦٦٦؛ النجوم الزاهرة: ٥/٢٣٦.

(٢٠) ذيل تاريخ دمشق، ص٢٢٩-٢٣٠.

(٢١) عيون التواريخ: ١٢/٣٣١.

(٢٢) نفس المصدر والمكان السابق.

(٢٣) ذيل تاريخ دمشق، ص٢٤٠؛ مرآة الزمان: ٨/١٤٥-١٤٦.

(٢٤) ذيل تاريخ دمشق، ص٢٧٧.

الفوارس المسيب بن علي الصوفي ثم خلفه من بعده أخوه حيدره[٢٥]. ثم استوز أخيراً مؤيد الدولة بن الصوفي وكان آخر وزراء آل طغتكين[٢٦]. ولم تشر المصادر إلى أعمال الوزراء الثلاثة المتأخرين، والذي يبدو أن الفترة التي استوزروا فيها كانت فترة اضطراب بشكل عام تسلط فيها قادة الجيش على الموقف، ولذلك لم نجد في المصادر التاريخية ما يوضح الكثير عن أولئك الوزراء أو عن أسباب عزلهم. على أن منصب الوزارة بشكل عام في أتابكية دمشق، يبدو أنه كان منصباً جليلاً يتمتع صاحبه بصلاحيات جيدة حيث كان يتولى إدارة منصب الرياسة أو السفارة إضافة إلى منصب الوزارة أحياناً. وكان في فترة الهدوء السياسي وقوة الأمير ينتخب الوزير الجيد الكفوء العالم باللغة العربية والعجمية.

وهناك وظيفة على درجة كبيرة من الأهمية هي وظيفة «مقدم العساكر» وهو المسؤول عن تنظيم الجيوش وقيادتها في أثناء الحروب. ففي رجب من سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م قاد بزداش مقدم عساكر دمشق عساكره إلى طرابلس واستطاع أن يحتل وادي بني الأحمر ثم يعود إلى دمشق[٢٧]. وكان من أهم مقدمي العساكر في هذه الأتابكية (معين الدين أنر) الذي كان متولي الجيوش وكان يلقب بـ«مقدم جيش دمشق»[٢٨]، وقد أشير من قبل إلى موقفه من الأمراء وتدخله في اختيار بعضهم، مما يدل على عظم أهمية هذا المنصب الذي يمثل منصب قيادة القوات المسلحة.

ويلي منصب مقدم العساكر في الأهمية منصب «رئيس البلد» أو «رئيس الأحداث»، وتقوم مهمته على «رئاسة جماعات مسلحة من سكان

---

(٢٥) النجوم الزاهرة: ٥/٣٠٠؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر (الكويت: ١٩٦٣): ٤/١٨٥-١٨٦.

(٢٦) شذرات الذهب: ٤/١٥٤؛ النعيمي؛ الدارس في تاريخ المدارس (دمشق: ١٩٥١): ٢/٢٨٨.

(٢٧) الكامل في التاريخ: ١١/٥٠.

(٢٨) شذرات الذهب: ٤/١٣٨، العبر في خبر من غبر: ٤/١٢١-١٢٢.

المدينة أشبه بالقوات الشعبية»[29]، وكان يعينّ هذا الموظف أمير دمشق. وقد شغل هذا المنصب في دمشق في عهد طغتكين الرئيس أبو المجالي سيف وأخوه أبو الذؤاد، إبنا الصوفي الوزير المار ذكره، وكانا قد تلقيا توجيهات خاصة من الأمير طغتكين في كيفية أداء مَهامِهِما، حيث أكد لهما على «استعمال النهضة في سياسة الرعايا، وإنهاء أحوالها فيما يستمر عليها من صلاح وفساد، ليقابل المحسن إليها بالاحسان والجافي عليها بالتأديب والهوان»[30]. وهذا يدل على أهمية منصب الرياسة حيث أعطي صلاحية مكافحة الفساد وتكريم المحسنين. ومما يدل أيضاً على أهمية هذا المنصب أن الرئيس كان يتولى الوزارة بالاضافة إلى منصب الرياسة. ومن الأمثلة على ذلك أن الأمير بوري عين أبا الذؤاد بن الصوفي في هذين المنصبين، وقد أشير من قبل إلى ذلك.

أما امتيازات هذا المنصب فكانت على ما يبدو جيدة، منها أن الرئيس كان يستدعى إلى القلعة ثم تخلع عليه الخلع الفخمة كالسيف المحلىّ والترس. وبعد أن ينتهي من مراسيم استلام الخلع يصاحبه خواصه إلى دار الرئاسة، بعد أن يكتب له منشوراً بالتقليد والاقطاع[31]، ويلقب ببعض الألقاب الحميدة كلقب (مؤيد الدولة) أو (الرئيس الأجل) وأحياناً (وجيه الدولة)[32].

ومن طرائف هذا المنصب أن بعض متوليه كانوا من ذوي الأخلاق السيئة، فقد كان حيدره مثلاً يعمل على «مقاسمة اللصوص وقطاع الطريق على أموال الناس المستباحة ويتستر عليهم»[33]. وقد افتضح أمره وعلم به

---

(٢٩) عماد الدين خليل، الجانب الاداري في مملكة نور الدين محمود ٥٤١-٥٦٩هـ (مقال منشور في مجلة آداب الرافدين، الصادرة عن جامعة الموصل) العدد٨ لسنة١٩٧٧.

(٣٠) ذيل تاريخ دمشق، ص١٤٤-١٤٥.

(٣١) نفس المصدر السابق، ص٣٢٦.

(٣٢) نفس المصدر والمكان السابق.

(٣٣) المصدر نفسه، ص٣٢٤-٣٢٥.

الأمير مجير الدين إبق فاستدعاه إلى القلعة سنة ٥٤٨هـ وأمر بقتله فأعدم، واختار من بعده رضي الدين أبا غالب عبد المنعم بن محمد بن علي الشميمي وهو آخر من تولى منصب الرئاسة في دمشق[٣٤]. وهذا ما يفسر لنا أيضاً سوء الأحوال واضطرابها في دمشق في آخر حكم هذه الأتابكية.

وقد اعتمد الجهاز الاداري في دمشق على عدد آخر من الموظفين الكبار الذين لا يقلّون أهمية عمن سبق ذكرهم، وأشهر هؤلاء «الشحنة والحاجب». والشحنة: وظيفة مستحدثة من قبل السلاجقة يكون صاحبها مسؤولاً عن إدارة المدينة وملاحظة الخارجين عن النظام وكانت مسؤولياته تشابه مسؤوليات الحاكم العسكري في الوقت الحاضر[٣٥]. أما الحاجب فكانت وظيفته إبلاغ الأمير بكل ما يحدث في المدينة وينهيه إليه[٣٦]. كما كان يعرض عليه أيضاً احتياجات الناس وظلاماتهم، فهو يقابل إلى حد ما وظيفة وزير الداخلية في الوقت الحاضر[٣٧].

ويتبين مما سبق وجود بعض التشابه بين وظيفتي الشحنة والحجابة، فكلاهما كانا مسؤولاً عن حفظ الأمن الداخلي في البلاد. ولذلك نلاحظ أن أحدهما كان يقوم بوظيفة الآخر، وقد يجمع المنصبين رجل واحد. ومن الأمثلة على ذلك كان يوسف بن فيروز يلقب بالشحنة والحاجب وكان يطلق عليه - كما يقول ابن القلانسي - «الحاجب فيروز شحنة دمشق»[٣٨]، وفي فترات أخرى، من حكم هذه الأتابكية لدمشق، كانت كل وظيفة مستقلة عن الأخرى، فكان مثلاً يشغل منصب الحجابة علي ابن الحامد، في حين كان السلار بختيار يشغل منصب الشحنة[٣٩].

---

(٣٤) نفس المصدر والمكان السابق.

(٣٥) عماد الدين خليل؛ الجانب الاداري في مملكة نور الدين، ص٦٢-٦٣، ٦٥.

(٣٦) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم (القاهرة: ١٩٤٨)، ص٤٠.

(٣٧) خليل، الجانب الاداري، ص٦٣.

(٣٨) ذيل تاريخ دمشق، ص٢٠٨؛ النجوم الزاهرة: ٥/٢٢٦.

(٣٩) أنظر: ذيل تاريخ دمشق، ص١٩٨، ٢١٠؛ كذلك: مرآة الزمان: ٨/٦٩.

وهناك فضلاً عن الوظائف السالفة إشارات إلى وظائف أخرى في أتابكية دمشق، منها منصب «السفير» لأن آل طغتكين كانت لهم علاقات مختلفة مع عدد من القوى التي كانت في بلاد الشام والعراق والجزيرة ومصر. كالخلافة العباسية وسلاطين السلاجقة في بغداد، والفاطميين في مصر بالاضافة إلى العلاقات المستمرة التي كانت بينهم وبين أتابكية الموصل وحلب، وبعض الامارات الصليبية التي كانت محتلة بعض مدن الشام. ولذلك كان الأمر يستدعي اختيار عدد من الأشخاص البارزين والجيدين ليقوموا بمهمة السفارة على أحسن وجه.

وأول من شغل هذا المنصب الحاجب علي بن حامد، فقد أرسله طغتكين رسولاً إلى حاكم مصر الفاطمي في رمضان سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م[٤٠]. ويبدو أنه لم يكن في دمشق شخص معين يقوم بهذه الوظيفة على الدوام، إذ كلما اقتضت الضرورة كلف الأمير موظفاً من موظفي الدولة ممن يعتمد عليه ليقوم بمهمة السفارة، كما جرى في الحالة السابقة. ومسؤولية هذا الرجل تشابه في الوقت الحاضر مسؤولية «المبعوث الشخصي» لرئيس الدولة.

ومن بين الذين تولوا هذا المنصب الأمير المؤرخ المعروف «أسامة بن منقذ الكناني» الذي كان موجوداً في دمشق فيما بين الفترة ٥٣٣-٥٣٩هـ /١١٣٨-١١٤٤م، وقد أختير في هذه الفترة سفيراً لحكام دمشق، يتردد بينهم وبين الصليبيين لمكانته الكبيرة من ناحية ومعرفته بأحوال بعض الامارات الصليبية -كمدينة صور- من ناحية ثانية. وقد عبر عن ذلك بقوله: «كنت أتردد إلى ملك الفرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك»[٤١].

---

(٤٠) ذيل تاريخ دمشق، ص٢١٠.

(٤١) ابن منقذ، كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتي (الولايات المتحدة: ١٩٣٠)، ص٨١.

وقد حظي القضاء لدى آل طغتكين باهتمام كبير، وقد أوردت المصادر عنه عدداً لا بأس به من الروايات أدلت بعد استقرائها على تولي هذا المنصب ثمانية من القضاة الجيدين الذين كانوا يمثلون المذاهب السنية المختلفة هذا المنصب، وكان بعضهم ينتمي إلى عوائل شهيرة لعبت دوراً هاماً في مجال القضاء والسياسة كعائلة الهروي والقرشي وعائلة بني الحديد، ومن عائلة القرشي وحدها تولى ثلاثة منصب القضاء الذي كان له أهمية كبيرة في البلاد، لأن القاضي في هذه الفترة، بعد أن كان ينظر فقط في القضايا المدنية والجنائية، أصبح يفصل في الدعاوى والأوقاف، وقد تضاف إليه الحسبة ودار الضرب.

وأول من أشارت المصادر إلى ذكر إسمه ممن تولى هذا المنصب في دمشق هو القاضي فخر الملك اسماعيل بن ابراهيم الحسيني المتوفى في الخامس والعشرين من صفر سنة ٥٠٣هـ[٤٢]. أما القاضي الثاني فكان محمد بن موسى بن عبد الله البلاساغوني الذي كان حنفي المذهب[٤٣]، مطلعاً على علوم شتى، غير أنه كان متعصباً للحنيفية، وهو أول من تولى منصب القضاء للأراتقة في بدء حياتهم السياسية في القدس، ولتعصبه للحنيفية ملَّ منه أهالي القدس واتهموا سيرته في القضاء بأنها كانت غير محمودة، ثم شكوه إلى سقمان بن أرتق فعزله، ومن ثم اتجه البلاساغوني إلى دمشق حيث تولى القضاء هناك وتوفي في الثالث عشر من جمادي الآخرة سنة ٥٠٦هـ[٤٤].

وقد أشارت المصادر أيضاً إلى القاضي محمد بن نصر بن نصر بن منصور الهروي البسكاني المتوفى سنة ٥١٩هـ[٤٥]. والقاضي يحيى بن علي بن عبد

(٤٢) ذيل تاريخ دمشق، ص١٦٥؛ النجوم الزاهرة: ١٩٨/٥.
(٤٣) ابن طولون، قضاة دمشق المسمى (الثغر البسّام في ذكر من ولي من قضاة الشام)، دمشق: ١٩٥٦، ص٤٢-٤٥.
(٤٤) ذيل تاريخ دمشق، ص١٨٣؛ مرآة الزمان: ٤٤/٨؛ البداية والنهاية: ١٧٥/١٢.
(٤٥) ابن طولون، قضاة دمشق، ص٤٥.

العزيز القرشي المتوفى سنة ٥٣٤هـ(٤٦). كذلك أشارت إلى القاضي سلطان بن يحيى القرشي، وإلى أخيه محمد بن يحيى القرشي المتوفى سنة ٥٣٧هـ(٤٧). غير انها لم تقدم روايات متكاملة عن مذاهبهم وطبيعة أعمالهم، في حين ذكرت القاضي السابع وهو أبو المعالي القرشي وأوضحت بأنه كان شافعي المذهب وأنه توفي سنة ٥٣٨هـ(٤٨). أما القاضي الثامن والأخير الذي تولى منصب القضاء في دمشق فكان أبو الحسين بن أبي الحديد المتوفى سنة ٥٤٦هـ(٤٩).

والذي يبدو أن أولئك القضاة لعبوا دوراً مهمًا في أتابكية آل طغتكين، وخاصة في تقرير الصفة الشرعية للأمراء الجدد الذين يتولون الحكم، وفي النظر في قضايا الأحوال الشخصية بالاضافة إلى أن بعضهم كان رئيساً للمدرسة الفقهية للمذهب الذي ينتمي إليه، وكان يعمل على تدريس الطلاب ويؤم المسلمين في الصلاة في المسجد الذي يقوم بالتدريس فيه أو في المدرسة إن كان التدريس فيها لا في المسجد.

ومن هنا فإن وظيفة «التدريس» كانت قد برزت بشكل واضح في دمشق خلال هذه الفترة، وقد حظيت باهتمام حكام آل طغتكين الذين اتبعوا، كأسلافهم السلاجقة، سياسة تبنّي العقيدة السنية على اختلاف مذاهبها، والعمل على إنشاء المدارس والمساجد أو تجديدها لخدمة هذه العقيدة ونشرها أو توضيحها. ولذلك فقد ساهم أغلب أمراء آل طغتكين ووزرائهم والمتنفذين في دمشق بإنشاء المدارس أو تجديدها مع إيقاف الأوقاف لها وتزويد كل مدرسة بما تحتاج إليه من الهيئة التعليمية من

---

(٤٦) ابن العماد، شذرات الذهب: ١٠٥/٥؛ الذهبي، العبر: ٩٣/٤؛ ابن طولون، قضاة دمشق، ص٤٥.

(٤٧) الذهبي، العبر: ١٠٣/٤؛ ابن طولون، قضاة دمشق، ص٤٥.

(٤٨) المكي، مرآة الجنان: ٢٦٨/٣.

(٤٩) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣١٦-٣١٧.

المدرسين والفقهاء. وكان إنشاء تلك المدارس يعتمد «على استعمال الأواوين التي تطل على فناء سماوي وعلى مصلى خاص يحتل الجهة الجنوبية من البناء على شكل قاعة مستطيلة، وعلى غرف مستطيلة للسكنى موزعة على طابقين»(٥٠).

ومن أشهر المدارس التي أنشئت في عهد آل طغتكين (المدرسة الأمينية) التي أنشأها أمين الدين كمشتكين نائب الأمير طغتكين في بصرى وصرخد التابعتين لأتابكية دمشق(٥١). وكان من أشهر مدرسيها الفقيه جمال الاسلام علي بن محمد الشافعي(٥٢)، وقطب الدين النيسابوري مدرس الأصول والتفسير (ت: ٥٧٨هـ). وكذلك (المدرسة المعينية) التي أنشأها - مقدم العساكر - معين الدين أنر سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م. وكان من أشهر مدرسيها الشيخ رشيد الدين الغزنوي ونجم الدين النيسابوري(٥٣).

وهناك فضلاً عن المدارس السالفة الذكر، إشارات إلى وجود مساجد كبيرة كانت تتخذ للتدريس والوعظ والارشاد ومن بين أهم تلك المساجد أذكر مسجد الحاجب فيروز ومسجد معين الدين أنر(٥٤) والمسجد الذي أنشأه المزدقاني عند رأس زقاق الأرزة(٥٥)، ومسجد السيدة خاتون في تل الثعالب الذي أنشأته صفوة الملك خاتون(٥٦)، كذلك المسجد الكبير الذي أنشأه رئيس دمشق أبو الذؤاد الصوفي عند رأس درب الجبن(٥٧).

---

(٥٠) عبد القادر الريحاوي، مدينة دمشق تراثها ومعالمها التاريخية (دمشق: ١٩٦٩)، ص١١٣.

(٥١) الكتبي، عيون التواريخ: ١٢/٤٠٤.

(٥٢) المصدر السابق: ١٢/٣٤٣.

(٥٣) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس (دمشق: ١٩٥١): ١/٥٨٨-٥٨٩.

(٥٤) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، قسم تاريخ دمشق، (بيروت: ١٩٥٦): ٢/١٤٢ و١٥٩.

(٥٥) المصدر السابق: ٢/١٤٧؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق (دمشق: ١٩٥٤) ق: ٢/٨٨.

(٥٦) تاريخ دمشق، ق: ٢/٩١.

(٥٧) نفس المصدر السابق، ص٦٠.

ويلي وظيفة المدرس «المُعيد» الذي يعتبر من أعضاء الهيئة التدريسية، ويكون المدرس الثاني للطلاب، يعيد الدرس عليهم، أو يشرح النقاط التي لم يتم فهمها من الأستاذ، كما يقرأ على الطلاب واجباتهم ويهيء أذهانهم لفهم الدرس قبل مجيء الأستاذ. ويكون عمله السابق بداية لانتقاله إلى مرتبة مدرس. وقد يكون المعيد في مدرسة، مدرساً في مدرسة أخرى في الوقت نفسه إذا كانت المدرسة بحاجة إليه. فقد كان جمال الأئمة علي بن الحسن بن المانج (ت: ٥٦٢هـ) مثلاً معيداً للمدرس الفقيه جمال الاسلام بالمدرسة الأمينية ومدرساً بالمجاهدية، وكانت له إضافة إلى ذلك حلقة كبيرة بالجامع الأموي يقريء بها القرآن[٥٨].

ومن الوظائف الادارية المعروفة في المدارس «الناظر» الذي ينظر في أمور المدرسة بصورة عامة وهو بمثابة مدير المدرسة. و«الشاهد» الذي هو كالمراقب للناظر أو نائبه و«المشارف» الذي ينظر في نظافة المدرسة وخدمتها. و«الصدر» الذي يجلب للمدرسة الطلاب وأهل العلم[٥٩].

وهكذا نجد أن النظم الادارية في دمشق في عهد آل طغتكين كانت دقيقة منظمة، اعتمدت النظم السلجوقية بشكل عام، وزادتها بما يتفق ومدينة دمشق ونظمها المتطورة خلال الحقب الزمنية الماضية. فقد كان نظام الحكم وراثياً وكان الأمير هو السلطة العليا في البلاد، وله مطلق الصلاحيات في تولية كبار الموظفين وعزلهم. وكان لكل أمير نائب ووزير وشحنة ورئيس ومقدم للعساكر، وينتخب هؤلاء بشكل عام من العناصر الكفوءة. وقد حظيت بعض الوظائف الأخرى، في هذه الفترة، باهتمام كبير كان من بينها منصب القضاء والتعليم.

دريد عبد القادر نوري

---

(٥٨) أمينة البيطار، التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري (مقال منشور في مجلة آداب الرافدين) جامعة الموصل، العدد الحادي عشر لسنة ١٩٧٩، ص٥٣-٥٤.

(٥٩) نفس المرجع السابق، ص٥٨-٥٩.